نظرات نقدية
فى خطبة زياد بن أبيه البتراء
المتوفى سنة ٥٣ هـ

للأستاذ الدكتور/ على محمد طلب
أستاذ الأدب والنقد ووكيل الكلية

التعريف بقائل الخطبة(١) :

هو زياد بن عبيد ، أو زياد بن أبى سفيان ، كما سمى نفسه عندما ألحق معاوية بن أبى سفيان نسبه بأبيه أبى سفيان ، أو زياد بن سميه أو زياد بن أبيه كما يسميه المتورعون .

فقد كان للحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب أمه فارسية تدعى سمية ، وعبد رومى يسمى عبيدا ، فزوج العبد بالأمة ، فولدت على فراشه زيادا فى السنة الأولى من الهجرة وكان مواده فى الطائف ، وقد نشأ هذا الغلام ملهما فصيحا أريبا أديبا شجاعا قارئا كاتبا ،

---

(١) انظر فى ترجمته : تاريخ الأدب العربى للأستاذ الزيات ص ١٨٩ وما بعدها ، ونماذج فى النقد الأدبى للأستاذ ايليا حاوى ص ٤٠٧ وما بعدها ، والأدب العربى للأستاذ أمين دياب خضر وآخرين ١/٢٤١ وما بعدها ط عاطف القاهرة ١٩٦٠ ،وفى أدب الأمويين والعباسيين ونصوصه للدكتور عبد السلام عبد الحفيظ ص ٩٢ وما بعدها ، وخطباء صنعوا التاريخ للأستاذ أنور احمد ص ٤٨ وما بعدها ط دار المعارف القاهرة .

واشتهر بالذكاء والفصاحة والبلاغة ، وأول ما يعرف عنه وعن نشأته منذ خروجه للغزو مع الجيوش الغازية بجهة المشرق ، وقد عهد اليه تقسيم الغنائم فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فى فتح الأبلة ، وهى مدينة على شاطىء دجلة ، ثم بعد ذلك لزم ولاة البصرة يكتب لهم الى أن اختاره المغيرة بن شعبة كاتبا له ، ثم كتب لأبى موسى الأشعرى ، عندما ولاه عمر بن الخطاب البصرة ، فأظهر ذكاء نادرا ، وغورا بعيدا فأعجب سيدنا عمر رضى الله عنه بذكاء زياد وفصاحته ، ولكنه أمر بعزله عن الكتابة وهو يقول : « اننى لم أعزله لعجز أو خيانة ، وانما كرهت أن يحمل على الناس فضل عقله » .

ومع ذلك فقد ظل الخليفة عمر بن الخطاب يكافه ببعض المهام فيقوم بها على خير قيام ، وحدث أن كلفه الخليفة عمر بمهمة صعبة ، وعاد اليه وعنده المهاجرون والأنصار ، فأمر أمير المؤمنين عمر أن يخطب الناس على المنبر بما لديه من أنباء ، فخطب خطبة رائعة فيها فصاحة وبلاغة ، حتى قال عمرو بن العاص : لله هذا الغلام ، لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه ، وكان بين الحاضرين أبو سفيان بن حرب ، يجلس الى جوار الامام على بن أبى طالب ، فهمس أبو سفيان فى أذن الامام على بأنه يعرف أباه الحقيقى ، وعندما سأله عن أبيه ، فقال : أنا أبوه ، واعترف بأن أمه حملت به منه ، وهو مشرك فى رحلة له بالطائف ، فقال له الامام على : فما يمنعك أن تدعيه ؟ فقال أبو سفيان : أخشى هذا الجالس أن يخرق على اهابى (يقصد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه) ، وهكذا أعجب أبو سفيان به وبفصاحته وبلاغته وحسن كياسته وذكائه ولكن لم يستطعه أنفه من العار وخوفا من أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه .

ولذلك يقول الشعبى وهو من أعلام التابعين : « ما سمعت متكلما على منبر قـط تكلم فأحسن الا أحببت أن يسـكت خـوفا أن يسىء الا زيادا ، فانه كلما أكثر كان أجود كلاما » .

ولمـا بويع للامام على كرم الله وجهه ، واختار عبد الله بن عباس رضى الله عنهما واليا على البصرة أرسل معه زيادا ، وأمره أن يسمع منه ويستشيره ، واتخذه ابن عباس عاملا على الخراج وبيت المـال ، وأظهر زياد مقدرة فائقـة فى تعـريف الأمور ، وسـدادا فى الرأى والمشـورة .

وعندما قتل عامل الامام على بلاد فارس ، واضطرب عليه أهلها ، وطمعوا فى التخلص من الخراج وثاروا بعماله ، استشار الامام على أصحابه فيمن يوليه بلاد فارس ، فقال له جارية بن قدامة : ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صلب الرأى عالم بالسياسة كان لمـا ولى ؟ فقال الامام : من هو ؟ فقـال جارية بن قدامة : زياد ، فأمره الامام بالمسير اليها وولاه أعمالها ، وهناك تمكن زياد بدهائه وحسن كياسته من الايقاع بين رؤسها والمتزعمين فيهـا ، وأخـذ يضرب بعضـهم ببعض ، ويرمى بينهم بالشقاق والفرقة حتى انطفأت نارهم وسكنت فورتهم ، وقضى عليهم بأيديهم ، واستتب له الأمر بغير حرب ، وهكذا أخضـع بلاد فارس بذكائه ودهائه وحسن سياسته ، حتى قال أهـل فارس : « ما رأينا سيرة أشبه بسيرة أنو شروان من سيرة هـذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى » .

وبقى يتولى أمرها حتى مقتل الامام على كرم الله وجهه .

ويستتب أمر الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان بعـد مقتل الامام

على ، ويكاشف الخليفة معاوية بعض المقربين اليه وهو المغيرة بن شعبة بمخاوفه من اعتصام زياد بن أبيه بفارس واستطاع المغيرة بن شعبة أن يفد عليه ويتلطف له وينصحه بالشخوص الى الخليفة ، وتمكن المغيرة من ذلك ، ولما وفد زياد على معاوية أحسن استقباله ، وثبته على بلاد فارس ، وأراد معاوية أن يوثق صلة زياد ويستميله اليه ، ويظفر برضاه ، فادعاه أخا له وألحقه بنسب أبيه(٢) • بشهادة شهود فى محضر من الناس ، وصار يسمى (زياد بن أبى سفيان) بدل زياد بن عبيد ، وان كان المتورعون يسمونه باسم ابن سمية أو ابن أبيه كما قلنا سابقا •

وقد ولاه معاوية بعد ذلك البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له السند والبحرين وعمان ، ثم ضم اليه الكوفة ، فأصبح بهذا واليا على العراقين ، وهو أول والى جمع له بينهما ، فلم زياد ما تشعث ، وقوم ما أعوج ، وكبح الفتنة فى مهدها ، وبالغ فى العقوبة ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، ثم وطد الملك لمعاوية بن أبى سفيان وأقره له ، وشمل الخوف منه الناس ، وأمن بعضهم بعضا ، فكان الرجل أو المرأة يفقد الشىء فلا تمتد اليه يد حتى يعثر به صاحبه فيأخذه ، واستتب الأمر فلم يغلق أحد بابه لشيوع الأمن بينهم ، وكان زياد يقول : « لو ضاع حبل بينى وبين خراسان لعرفت آخذه » وكان شعاره فى الحكم : المحسن يجازى باحسانه ، والمسىء يعاقب باساءته »(٣) •

---

(٢) انظر : خطباء صنعوا التاريخ ص ٤٨ وما بعدها •

(٣) انظر : الأدب العربى للأستاذ أمين دياب خضر وآخرين ١/٢٤٢

ولقد اشتهر زياد منذ حداثته بالفصاحة ، وكان خطيبا مفوها يملك زمام القول والبيان ، وكان بليغا اذا وقف للكلام تدفق بالقول تدفق السيل المنهمر ، وكان طويل النفس كلما أطال كان أجود كلاما كما قال الشعبى .

ولم يحفظ لنا التاريخ كثيرا من خطبه ، ولكن القليل منها الذى وصل الينا يكفى للدلالة على فصاحته وبلاغته وعبقريته ولسانه الذرب وذكائه الحاد وبيانه العجيب .

وجاء فى كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسى « ان الدهاة أربعة : معاوية للروية وعمرو بن العاص للبديهة والمغيرة بن شعبة للمعضلات وزياد لكل صغيرة وكبيرة » .

وتوفى بالكوفة ، وروى أنه أصيب بالطاعون فى يده ، وأشير عليه بقطعها ، فأبى ومات فى رمضان سنة ٥٣هـ .

جـو النص :

عندما قدم زياد بن أبيه البصرة واليا عليها من قبل معاوية سنة ٤٥هـ ، وكان الفسق فيها فاشيا ، لضعف الوالى الذى كان قبله ، فقد كان الفساق يأخذون المرأة ، ويتركونها تنادى ثلاثا ، فاذا لم يجبها أحد اغتصبوها ، وليس منهم من يمنع اللصوص الذين يسرقون فى الليل ، ويغيرون على الآمنين فى النهار ، فليس عندهم دين يلتزمون بتعاليمه السمحة ، ولا رادع من خلق يردعهم ، فكل كبير منهم يدافع عن السفهاء ، فيطمعهم بالاستمرار فى جرائمهم ، وهذا ضيع المتهاونين الذين لا يخشون عواقب الأمور ، ولا يرجون الخير والنجاة يوم المعاد ، ومن هنا صعد زياد المنبر وخطب فى الناس خطبته البتراء .

ولقد سلك زياد مع أهل البصرة سياسة عنيفة قاسية ، كانت هذه الخطبة مظهرا من مظاهرها وسميت بالبتراء لأنها لم تبدأ بحمد الله تعالى ، ويبدو أن زيادا عمد الى ذلك عمدا لأن عبارات الخطبة غاية فى الشدة والعنف ، فملأت قلوب السامعين رعبا وفزعا ، وهو فى ذلك يقتدى بالقرآن الكريم حيث لم يبدأ سورة (براءة) بالبسملة ، لأنها من أولها الى آخرها تهدد وتتوعد وتعلن براءة الله ورسوله من المنافقين(٤) .

وكانت هذه الخطبة نموذجا فريدا من الفصاحة والبلاغة وقوة البيان ، وتدل على عبقرية زياد كحاكم وخطيب .

نص الخطبة :

« أما بعد(١) : فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء(٢) ، والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم(٣) من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ، ولم تستمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى(٤) الذى لا يزول ، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات(٥) ، واختار الفانية على الباقية ؟ ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه ، من تركككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ، هذه المواخير(٦) المنصوبة

---

(٤) انظر : التاريخ الأدبى للدكتور على العمارى ٢/١٦٤ وما بعدها ط دار القومية العربية للطباعة القاهرة ١٩٦٥ .

والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل ، ألم يكن منكم نهاة(٧) ، تمنع الغواة عن دلج الليل(٨) وغارة النهار ؟ قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختاس، كل امرىء منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معادا(٩) ، ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرم(١٠) الاسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوسا فى مكانس الريب(١١) ، حرام على الطعام والشراب ، حتى أسويها بالأرض هدما واحراقا .

انى رأيت آخر الأمر لا يصلح الا بما صلح به أوله ، لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ، وانى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى(١٢) ، والمقيم بالظاعن(١٣) ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاص ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : (انج سعد فقد هلك سعيد)(١٤) ، أو تستقيم قناتكم ، ان كذ به المنبر بلقاء(١٥) مشهورة ، فاذا تعلقتم على بكذبه فقد حلت لكم معصيتى ، فان سمعتموها منى فاغتمزوها(١٦) منى ، وأعلموا أن عندى أمثالها ، من نقب منكم عليه(١٧) فأنا ضامن لما ذهب منه ، فاياى ودلج الليل(١٨) ، فانى لا أوتى بمدلج الا سفكت دمه ، وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع اليكم ، واياى ودعوى الجاهلية(١٩) فانى لا أجد أحدا دعا بها الا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوما غرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم ، أكفف عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهر من أحد منكم

ربية بخلاف ما عليه عامتكم(٢٠) ، الا ضربت عنقه ، وقد كانت بينى وبين أقوام أحن(٢١) ، فجعلت ذلك دبر أذنى(٢٢) ، وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا ، ومن كان منكم مسيئا فلينزع عن اساءته ، انى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغض(٢٣) لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترا ، حتى يبدى له صفحته ، فاذا فعل لم أناظره(٢٤) ، فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس •

أيها الناس : انا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذاده(٢٥) ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذى خولنا(٢٦) ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحكم لنا ، واعلموا أنى مهما قصرت عنه ، فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ، ولن أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن ابانة ، ولا مجمرا(٢٧) لكم بعثا ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فانهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم(٢٨) الذى اليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا له حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم ، أسأل الله أن يعين كلا عن كل ، واذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر ، فأنفذوه على أذلاله(٢٩) ، وأيم الله ان لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى»(٥) •

---

(٥) اعتمدنا فى خطبة زياد على جمهرة خطب العرب ٢/٢٥٧ وما بعدها ، وتوجد هذه الخطبة فى العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلس ٣/٣٩٠ وما بعدها ط مصطفى محمد (التجارية) القاهرة عثمان الجاحظ ٣/٢٩ وما بعدها ، وغيرها من الكتب •

شـــرح المفـــردات :

١ ــ أما بعد : أما حرف شرط وتفصيل ، وبعد ظرف مبنى على الضم والمعنى أما بعد ما تقدم •

٢ ــ الجهالة الجهلاء : جهالة شديدة ، وهـذا الوصف لتأكيـد المبالغة كقولهم : ليلة ليلاء أى ليلة شديدة الظلام ، يوم أيوم أى يوم شديد الطول • العمياء : التى يعمى فيها الناس ونسبة العمى اليها مجاز عقلى • الغى : الضـــلال •

٣ ــ سفهاؤكم : جمع سفيه وهو السيىء الخلق • حلماؤكم : جمع حليم وهو الحسن الخلق العاقل •

٤ ــ السرمدى : الدائم •

٥ ــ طرفت عينيه الدنيا : أى طمحت عيناه الى الدنيا ، وصرفته اليها والى متاعها وزخرفها • سـدت مسامعه الشـهوات : كناية عن تمكنها من نفوسهم •

٦ ــ المواخير جمع ماخور وهو بيت الريبة والفحش والفجور •

٧ ــ نهاه جمع ناه ، وغواه جمع غاو وهو الضال •

٨ ــ دلج الليل : السير من أول الليل •

٩ ــ يذب : يدافع • المعاد : الآخرة •

١٠ ــ حرم الاسلام : الحرم جمع حرمة وهو مالايحل انتهاكه •

١١ ــ كنوس : جمع كانس أى مستتر ، وأصله من كنس الظبى كضرب دخل فى كناسه أى مأواه وهو مسـتتر من الشجر ، ومكانس

الريب : مكانها المستترة جمع مكنس كمجلس ، والمراد أنهم عكفوا على المعاصى مختبئين •

١٢ ــ الولى : السيد ، والمولى هنا العبد ، بمعنى أنه يأخذ السيد بذنب عبده •

١٣ ــ الظاعن : المسافر •

١٤ ــ « انج سعد فقد هلك سعيد » مثل يضرب فى تتابع الشر ، وأصله : أن ابنا ضبة بن أد بن طانجة خرجا فى طلب ابل لأبيهما ، فوجدها سعد فردها ، أما سعيد فقد ظفر به الحارث بن كعب فقتله ، فكان ضبة اذا رأى سوادا بالليل قال : أسعد أم سعيد •

١٥ ــ بلقاء : من البلق بالتحريك وهو ارتفاع التحجيل فى الفرس الى الفخذين ، والتحجيل : بياض فى قوائم الفرس • والفرس البلقاء مشهورة لتميزها عما سواها ببلقها ، والمراد واضحة مشهورة •

١٦ ــ فاغتمزوها فى أى عدوها من عيوبى ، واغتمزه : طعن عليه •

١٧ ــ نقب عليه : سرقت داره •

١٨ ــ دلج الليل : السير من أول الليل ، وهو كناية عن التلصص والسطو ليلا •

١٩ ــ دعوى الجاهلية : التناصر بالعصبية الحمقاء وقولهم : يالفلان •

٢٠ ــ نبش قبرا : فتحه وسرق أكفان الميت • ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ماعليه عامتكم : الريبة : التهمة • والمراد من العبارة السابقة أنه لا يشتبه فى أحد ينوى الخروج على الجماعة الا قتله •

٢١ ــ الأحن : جمع احنة وهى الحقد والضغينة ٠

٢٢ ــ دبر أذنى : خاف أذنى ٠

٢٣ ــ قتله السل من بغضى : كناية عن شدة الحقد ٠

٢٤ ــ حتى بيدى صفحته : أى يكاشفنى ويجاهرنى بالعداوة ٠ لم أناظره : أتمهل عليه ٠

٢٥ ــ ذاده : حماة جمع ذائد وهو الدافع ٠

٢٦ ــ الفىء : مال الخراج أو الغنيمة ويطلق على الظل ، والفىء ماكان شمسا فينسخه الظل ، والمراد هنا النعمة أو الخراج وكلا المعنيين واردهنا ، أى ندفع عنكم بنعمة الله التى وهبنا اياها ، أو بما صار فى أيدينا من أموال الخراج ٠

٢٧ ــ ابانه : وقته وموعده ، مجمرا من جمر الجند أو البعث : حبسهم فى أرض العدو ولم يرجعهم ٠

٢٨ ــ كهفهم : ماجاؤكم وملاذكم ٠

٢٩ ــ أذلال بفتح أوله : جمع ذل بكسر الذال أى وجوهه وطرقه ، وذل الطريق : محجته (وأمور الله جارية على أذلالها أى مجاريها) ٠

الأفكار التى يدور حولها النص :

١ ــ حال أهل البصرة وانتهاكهم حرمات الله يوم مقدم زياد ٠

٢ ــ الثواب عند الله للطائعين والعذاب للعاصين الذين يعصون الله ٠

٣ ــ تهكم زياد وتهديده لأهل البصرة لانتهاكهم حرمات الله تعالى ٠

٤ ــ اللين فى غير ضعف والشدة فى غير عنف .

٥ ــ دعوى الجاهلية وتحذير زياد لمن دعا بها .

٦ ــ الشدة والعنف مع الفساق والعصاة الذين لا يرعون لله عهدا ولا ذمــة .

٧ ــ واجب الحكام العدل بين الرعية ، ولهم على الرعية السمع والطـــاعة .

المعــنى العـــــام :

هــذه خطبة مشهورة لزياد بن أبيه أحــد دهاة العرب وساستها ، ولقــد اشتهر بالذكاء والشجاعة ، كما اشتهر بالفصاحة والبــلاغة ، وهــذه الخطبة تدل على عبقريته كحاكم وخطيب ، ولقــد أعلن الحكم العرفى فى الاسلام بخطبته فى أهل البصرة والتى عرفت بالبتراء ، وفرض (حظر التجول) ليلا واصطنع سياسة لم يسبقه اليها حــاكم فى الاسلام ، لمــا هم فيه من شرور وآثام ، وكانت البصرة فى ذلك الوقت مسرحا للجرائم والفسق والفجور والمنكرات ، وقــد أشـــار زياد الى ألوان الفساد التى كانت فاشية فى هــذه الحقبة ، وقد شمل الفجور كل أنحــاء المدينــة ، واشتغل به السفهاء والعقلاء ، وأنذرهم وحذرهم بأن ما هم فيه هو الطريق الموصل الى النار والدمار للجميع ، فالسفهاء لارتكابهم المنكرات والمحرمات ، والعقــلاء لأنهم يتحملون التبعة الكبرى فى سكوتهم على ما يفعله السفهاء ، وأنكر عليهم ارتيادا المواخير ودور الفجور ، كما أنكر عليهم النهب والسلب ليلا ونهــارا ، وكأن القوم غافلون عن تعاليم الدين وشرائعــه غفلوا عن الآخــرة ، ورضوا بالدنيا ، وتغلبت عليهم الشهوات ، واختــاروا الدنيا على الآخرة ، ثم أوضح لهم أنهم أحــدثوا فى الاسلام الحــدث الذى لم

يسبقوا اليه ، وهو انتهاك حرمات الله ، ثم يسأل فى تهكم ألم يكن منكم من يمنع الغواة ويتصدى لهم ولأفعالهم؟فأنتم تخشون الأهل والأقارب وتقربوهم ولا تخشون الله .

أليس منكم من يمنع المنحرفين والمغيرين على الآمنين ، ويقف فى وجه اللصوص الذين يسرقون ؟ وبعد ذلك يأخذ العهد الوثيق على نفسه ألا يقرب طعاما أو شرابا حتى يهدم هذه المواخير ، ويجعل عاليها سافلها ، فيجتث بذلك الشر من جذوره ، والاثم من أصوله .

ثم أخذ يبين لهم خطته فى السياسة ، ويوضح منهجه الذى يسير عليه فى الحكم ، فقال : انى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح الا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ، ثم يقسم بالله تعالى أنه سيأخذ السيد بذنب العبد ، والمقيم بالمسافر ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاص ، والصحيح بالسقيم ، حتى يصبح الأمر مضربا للمثل المشهور : « انج سعد فقد هلك سعيد » ، فاما أن يكون الرعب والخوف هو المسيطر على البصرة واما أن تستقيم له أمورها ، وان كذبة لأمير أو خليفة تكون مشهورة ومميزة عما سواها ، ثم يذكر أنهم أحدثوا ذنوبا لم تكن من قبل ، ثم أخذ يسرد هذه الذنوب والآثام ، وما سنه من عقوبة شديدة ورادعة لكل من تسول له نفسه فعل هذه الآفات والمنكرات والموبقات ، ومع ذلك فهو يطلب منهم أن يكفوا ويقلعوا عن جرائمهم ، والا فيكون مصير الخارج على هذا هو القتل .

ثم أخذ يطلب منهم فى لين ويذكرهم بلطف أنه أصبح حاكما ، وأنه يتولى الدفاع عنهم ، ومن الواجب عليهم أن يلتزموا بالطاعة ، لأنه أقام فيهم بسلطان الله ، فطاعته حينئذ من طاعة الله تعالى ، ويطلب منهم

أن يدعوا الله تعالى بصلاح الأمر لكافة الأئمة ، فانهم المؤدبون نهم وملجأؤهم وملاذهم الذى اليه يأوون ، ويختتم هذه الخطبة بأن يرفع أكف الضراعة الى المولى عز وجل أن يصلح أحوال المسلمين ، وأن يحذر كل واحد من الرعية من مخالفة الحاكم ، حتى لا يكون من صرعاه(٦) .

دراسة وتحليل ونقد :

١ ــ تدل هذه الخطبة على حنكة زياد بن أبيه السياسية ، وعلى قدرته ومهارته فى ادارة الأقاليم الاسلامية بمنتهى الكياسة والذكاء والدهاء ، فعندما ولى زياد البصرة كانت قد فشت فيها المنكرات والموبقات والآثام ، واستيقظت الفتن والمؤامرات ، فاستعمل فى حكمها شدة لم يألفها العرب ، فأعلن الحكم العرفى لأول مرة فى الاسلام ، وفرض (حظر التجول) ليلا ، واصطنع سياسة لم يسبقه اليها حاكم فى الاسلام ، بالظنة ، وبالغ فى العقوبة ، حتى استتب الأمن ، فكان الشىء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتى صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وخافه الناس وهابوه ، وكان يعلق فى مجلسه عنوان سياسته ، التى تضمنها هذه العبارة (شدة فى غير عنف ، ولين فى غير ضعف ، المحسن يجازى باحسانه والمسيىء يعاقب باساءته) .

ولا شك فى أن زياد قد أسرف على الناس ، وقد قيل بعد ذلك : « تشبه زياد بعمر بن الخطاب فأفرط ، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس » .

---

(٦) انظر : فى أدب الأمويين والعباسيين ونصوصه للدكتور عبد السلام عبد الحفيظ ص ١٠٠ وما بعدها .

ولقد اشتهر زياد بالفصاحة والبلاغة منذ حداثته ، وكان خطيبا مفوها ، اذا وقف للكلام تدفق بالقول تدفق السيل المنهمر ، وكان طويل النفس كلما أطال كان أجود كلاما ، كما قال الشعبى أحد أعلام التابعين •

وكانت خطبته البتراء نموذجا فريد من الفصاحة والبلاغة ، تدل على عبقرية زياد فى السياسة والحكم ، وعلى اجادته للخطابة السياسية دون منازع(٧) •

٢ ــ تسير الخطبة فى تناسق دقيق واحكام بديع ، حيث تأخذ عباراتها بأعناق بعض ، فى وحدة موضوعية وعضوية تامة لا نظير لها • وقد كانت الخطبة مكونة من موضوع وخاتمة ، وخلت الخطبة من المقدمة التقليدية : وهى حمدا الله والثناء عليه ، ولذلك سميت بالبتراء(٨) ، لأن زيادا عمد الى ذلك عمدا لأن عبارات الخطبة وألفاظها وصياغتها غاية فى الشدة والعنف ، فملأت قلوب السامعين رعبا وفزعا ، وهو فى ذلك يقتدى (بسورة براءة) حيث خلت هذه السورة من البسملة لأنها تهدد وتتوعد من أولها الى آخرها ، وتعلن براءة الله ورسوله من المنافقين •

أما الموضوع فينقسم الى ثلاثة أجزاء : فى الجزء الأول عرض عام لأخلاق سكان البصرة ومسلكهم ، وفى الجزء الثانى أعلن منهجه العام الذى سيسلكه فى سياستهم ، وهو منهج قائم على الصرامة والعنف فى العقوبة للمخالفين ومن والاهم وتستر عليهم ، أى أنه مد

---

(٧) انظر : خطباء صنعوا التاريخ ص ٥١ وما بعدها •

(٨) البتراء : المقطوعة والمشوهة •

عقابه الى الجماعة لا الى الفرد ، فيعاقب السيد بما جنـــاه عبـــده ، وسيعاقب المقيم بجريمة المسافر ، والمقبل بذنب المدبر ، بل ســـيأخذ بجريرة العاصى •

والجزء الثالث من موضوع الخطبة فقد تناول عدة أمور : الأمر الأول ألا يثيروا نعرة العصبية الجاهلية ، وأن يكفوا عن واليهم ألسنتهم وأيديهم بالسمع والطاعة ، وأن يجتنبوا مواقف الريب والظنون •

والأمر الثانى : بيان لمـــا يجب أن يكون بينه وبينهم ، فلهم عليه أن يعدل ، ولهم عليه ألا يحتجب عن صاحب الشكوى وان طـــرق بابه ليلا ، وألا يؤخر أعطياتهم عن موعدها ، ولا يحبسهم فى أرض العـــدو زمنا طـــويلا • أما بالنسبة للرعية فله عليهم السمع والطـــاعة ، وكان الخطيب موفقا كل التوفيق بأن جعل السمع والطاعة مما جاء به الدين الاسلامى حيث يقول المولى عز وجل « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »(٩) •

حيث أكد لهم أنه يستمد سلطانه من الله تعالى ، وأن الله هو الذى اختار الحكام ليسوسوا رعيتهم ويذودوا عنهم ، واذا صلحوا صلحت الرعيـــــة •

ثم كانت الخاتمة قصيرة جامعة للغرض العام من الخطبة اذ ذكرهم بالعقاب الشديد فى صراحة وتأكيد فى قوله « وايم الله ان لى فيـــكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء أن يكون من صرعاى »(١٠) •

---

(٩) سورة النســـاء الآية ٥٩ •

(١٠) انظر : أدب السـياسة فى العصر الأموى للدكتور احمد محمد الحوفى ص ٢٩٤ وما بعدها ط دار نهضة مصر للطباعة القاهرة ١٩٦٩ •

وهكذا كانت الخطبة تسير فى تناسق دقيق واحكام بديع ، وكانت مؤثرة فى السامعين ، بقدر العاطفة التى كانت فيها ، وكانت تمثل نفسية الخطيب وروحه وشخصيته أتم تمثيل .

٣ ــ يمتاز النص باختياره للألفاظ الدقيقة المعبرة الجزلة ، والتى لا يمكن أن يصلح سواها فى مقام التهديد والوعيد والزجر والشدة والحزم ، كما تخير الخطيب ألفاظ عبارته التى عبر بها عن انفعاله ونقمته ونفسه الثائرة وثورته العارمة وفؤاده الملتهب ، فجاءت ألفاظا متحفزة ثائرة شديدة التوتر توحى بالعنف والشدة وقسوة الانتقام والتهديد والوعيد ، مثال ذلك : « الجهالة ــ الجهلاء ــ الضلالة ــ العمياء ــ الغى ــ سفهاؤكم ــ المواخير ــ المنصوبة ــ والضعيفة ــ المسلوبة ــ نهاة ــ الغواة ــ انتهكوا ــ حرم ــ مكانس ــ اريب ــ هدما ــ واحراقا ــ السفهاء ــ قناتكم ــ بلقاء ــ فاغتمزوها ــ نقب ــ دلج ــ سفكته ــ قطعت ــ عقوبة ــ غرق ــ غرقناه ــ أحرق ــ أحرقناه ــ نقب ــ نقبنا ــ نبش ــ دفناه ــ ريبة ــ ضربت ــ عنقه ــ احن ــ اساءته ــ قتله ــ السل ــ بغض ــ اهتك ــ مبتئس ــ ساستكم ــ المؤدبون ــ بغضهم ــ غيظكم ــ حزنكم ــ شرا ــ صرعى ــ فليحذر ــ صرعاى » .

وهكذا عبر زياد بن أبيه بألفاظه على كل معنى للتهديد والوعيد ، فى عبارة تمتلىء بالسخط الشديد والحزم والشدة وخاصة مع أهل البصرة الذين لا يرعون لله عهدا ولا ذمة ويرتكبون الموبقات ويعكفون على المعاصى ليلا ونهارا ، ويأتون المنكرات جهارا عيانا ، بلا رادع يردعهم أو وازع من ضمير ولا خلق يردهم الى دين الله تعالى .

٤ ــ وأسلوب هــذه الخطبة الرصينة القوية فى مبناها ومعناها ذات ايقاع متميز وذات تأثير صوتى قوى ، فقد اعتمــد الخطيب فى أسلوبه الخطابى على الوعيد والتهديد والحزم الشديد ، فعبارات الخطبة وصياغتها غاية فى الشدة والعنف ، وهى تمثل الحاكم القوى الذى كان يأخذ بالشبهة ، ويعاقب بالظنة ، وخافه الناس وهابوه ، ولقــد كانت عبارات الخطيب مليئة بالتهديد والوعيد والألفاظ القوية المعبرة ، وكانت هذه الخطبة قوية الأسلوب جزلة المعانى بالغة التأثير ، فأسلوب الخطبة يتميز بالاحكام الدقيق والتناسق البديع ، مع شىء من الاطناب غير الممل الذى يؤدى فى النهاية الى قوة التأثير والاقناع والاستمالة ، وفى هذه الخطبة تحرى الوضــوح ومجانبــة الغموض والتعقيــد فى أسلوبها وعباراتهــا ، وليس فى هــذه الخطبــة ألفــاظ غير معقدة ولا متكلفة ولا مستكرهة ، بل جاءت كلها عفو الخاطر وبلا كد الذهن واجهــاد للخــــاطر .

ومن الملاحظ فى هــذه الخطبــة أنها جمعت بين (الوحــــدة الموضوعية) و (الوحدة العضوية) فالوحــدة الموضوعية تتمثل فى التنديد بأفعال أهل البصرة ، ورسم سياسة زياد فى الحكم وهو منهج قائم على الصرامة والعنف فى مواجهة المخالفين ومن والاهم وتستر عليهم ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم .

وأما الوحدة العضوية : فتســير الخطبــة فى اطار فنى واحد فالغرض والخيال والمعانى والأسلوب والايقاع الموسيقى كلها فى رسم الفكرة ، ولا يمكن فصل جزء عن باقى الخطبة ، كما لا يمكن التقــديم والتأخير فى أجزائها لأنها وحــــدة متصلة مرتبطة ، وجاءت نفســية

الخطيب وطابعه وأسلوبه فى الحياة فقد فطر على العنف والشدة ، لذلك شملت الخطبة وحدة عضوية وثيقة(١١) .

ونأتى الى الأساليب الانشائية ، ومن أهمها أسلوب الأمر والتحذير التى وردت فى هذه الخطبة ، فمن صيغ الأمر التى أكثر الخطيب منها لتآلفها وطبيعة التجربة أو الموضوع الذى يتحدث فيه ، فهو يواجه الرعية العاصية المتمردة يؤنبها ويقرعها ويثور عليها ويزجرها ويزجيها فى سبيل السمع والطاعة ، واستخدم لذلك أسلوب الأمر المباشر لزجر الرعية وردعهم ، ومنها قوله : (فاغتمزوها فى وأعلموا أن عندى أمثالها) وقوله (فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم) وقوله (فليزدد احسانا) وقوله (فلينزع عن اساءته) وقوله (فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم) وقوله (فاستوجبوا عدلنا وفيئنا) وقوله (واعلموا انى مهما قصرت فان أقصر عن ثلاث) وقوله (فليحذر كل امرىء أن يكون من صرعاى) وما الى ذلك .

ويلحق بأسلوب الأمر ويواكبه أسلوب التحذير ومنها (فاياى ودلج الليل) وقوله (واياى ودعوى الجاهلية) ، الى جانب أساليب القسم فى قوله (وانى أقسم بالله لأخذن الولى بالولى) وفى قوله (وأيم الله ان فيكم لصرعى كثيرة) وما الى ذلك .

وفى الخطبة أسلوب التأكيد الذى يدنو من القسم كقوله : (ان الجهالة الجهلاء) ، وقوله (انى رأيت آخر الأمر لا يصلح الا بما صلح به أوله) وقوله (انى لا أجد أحدا دعا بها الا قطعت لسانه)

---

(١١) انظر : نصوص أدبية للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص٥٤ ط الحلبى القاهرة ١٩٧٥ .

وقوله (انى أقسم بالله) وقد جمع أسلوب التأكيد بأسلوب القسم ، وقوله (انى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى) وقوله (انا أصبحنا لكم ساسة) وقوله (ان لى فيكم لصرعى كثيرة) وقوله (ان كذبة المنبر بيضاء) وما الى ذلك ، وربما توسل للتأكيد بقدر الدلالة على التحقيق ، ومنها قوله (قد أجلتكم لذلك بمقدار ما يأتى الخبر من الكوفة) وقوله (وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة) ، ومن الأساليب فى الخطبة أسلوب الاستفهام الدال على التوبيخ والتعجب والانكار مثل قوله (أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات ؟) وقوله أيضا : (ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة ؟) ، ونقع فى هذه الخطبة على أسلوب النداء فى قوله (أيها الناس : انا أصبحنا لكم ساسة) ، وعلى أسلوب القصر فى قوله (فانى لا أوتى بمدنج الا سفكت دمه) وقوله (انى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح الا بما صلح به أوله) وقوله (انى لا أجد أحدا دعا بها الا قطعت لسانه) وقوله (ولا تظهر من أحد منكم ريبة الا ضربت عنقه)(١٢) .

٥ ــ هذه الخطبة التى خطبها زياد بن أبيه تعد من عيون النثر الأدبى فى عصر بنى أمية وغيرها من العصور ، فلا تزال لها تأثير فى النفوس ولها وقع فى القلوب الى وقتنا هذا ، فمن المؤكد أن للعاطفة الصادقة دورها الفعال فى مجال تصويرها وروعة أدائها وتعبيرها ، وكانت وراء نجاح هذه الخطبة الشهيرة ، فى استتاب الأمن والقضاء على الفتن والقلاقل والمعاصى والمنكرات ، فمما لا شك فيه أن زياد لما قدم البصرة هاله ما رأى من انتهاك حرمات الله ،

---

(١٢) انظر : نماذج فى النقد الأدبى ص ٤١٩ وما بعدها .

ومن اغتصاب النساء ومن سرقات البيوت ، ومن قطاع الطرق الذين لا يرعون لله عهـدا ولا ذمة ، ومن عكوف بعض الناس على المعاصى والشهوات ، وقد تفشت فى البصرة آنذاك المنكرات والموبقات والآثام ، واستيقظت فيها الفتن والمؤامرات ، فانفعل بهذه الأحداث الجسام والموبقات والفجور الذى يضرب بأطنابه فى كل مكان ، فقـال هذه الخطبة التى أعلن فيها الحكم العرفى لأول مرة فى الاسـلام وفرض (حظر التجول) ليلا ، وسن سياسة فى الحكم لم تكن فى الاسلام من قبـل .

وقد اعتمدت هـذه الخطبة على العاطفـة الصـادقة والاقنـاع والاستمالة ، مقرونة بوسائل التهديد والوعيد والحزم وقسوة الانتقام، وقد عبر فيها عن انتقامه ونقمته ونفسه الثائرة وثورته العارمة وفؤاده الملتهب ، وقد كان لألفاظها وعباراتها التى تحتوى على التهديد والوعيد والتهكم والانكار لكل أفعالهم المخزية ، وايقاعها الحاسم القاطع وقوة التصوير فى أدائها ، قوة فى التأثير عنـد السامعين والمتلقين ، اذن فالعاطفة هنا جياشـة استحوذت على مشـاعر السامعين ، وجعلتهم أسارى لصدق مشاعر الخطيب وأحاسيسه وعاطفته الملتهبة .

٦ ــ أما عن الايقاع الموسيقى للخطبة فجلى ظاهر فى الكلام ، ولقد قام هـذا الايقاع فى لونين :

أحدهما : ظاهرى يتجسد فى تلك المحسنات البديعة ذات الجرس الموسيقى المتميز مثل الجناس والطباق والسجع ، وفى ذلك التقسيم الموسيقى المتوازن بين الجمل .

وثانيهما : خفى يتمثل فى ائتلاف الكلمات ودقة انتقائها ، كمـا يتمثل فى هـذا الترابط الوثيق بين الأفكار وروعة التصوير الخيالى .

فالجناس وقد تعمده الخطيب أو خطر به لفضيلة الايقاع ، ونقع على الجناس الكامل وغير الكامل فيما يلي : الجهالة الجهلاء ــ قربتم القرابة ــ تعتذرون بغير العذر ــ كنوسا فى مكانس الريب ــ الولى والمولى ــ سعد وسعيد ــ من نقب بيتنا نقبنا عن قلبـــه ــ سيسر ومسرور ــ ساسة ونسوسكم وما الى ذلك .

ويوجد الطباق فى الخطبة أكثر من أى محسن بديعى ، اعتمـد عليه الخطيب بطبيعة المعانى التى يؤديها ، ينقض بعضها البعض الآخر ، والخطيب يعرض صورة سلبية ثم يعارضها بأخرى ايجابية ، ناقضـا اللفظة بنقيضها ، والعبارة بما يعكسها ، وهذا ما يحدث ايقاعا موسيقيا عذبا فى الكلام ، مثال ذلك : سفهاء وحامـاء ــ الصـغير والكبير ــ الثواب والعذاب ــ طاعته ومعصيته ــ الفانية والباقية ــ نهاة وغواة ــ الليل والنهار ــ قربتم وباعدتم ــ لين وشدة ــ ضعف وعنف ــ الولى والمولى ــ المقيم والظاعن ــ المقبـل والمدبر ــ المطيـع والعاصى ــ الصحيح والسقيم ــ نجا وهلك ــ نبش ودفن ــ محسن ومسىء ــ احسان واساءة ــ ابتئس ومسرور ــ لنا عليكم ولكم علينا .

وواضح أن السجع كثير فى هـذه الخطبة ، وهو يتمثل فى هـذه الجمل القصار ، ولكن هـذه الاسجاع لم تأت بتكلف ولا تعمل ، بل جاءت مطبوعة غير متكلفة ، وأتت عفو الخاطر وبلا كد لذهن واجهـاد للخاطر ، ومنها : الجهالة الجهلاء ــ والضـلالة العمياء ــ ما فيـه سفهاؤكم ويشتمل عليه حاماؤكم ــ ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير ــ ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته ــ اختار الفانية على الباقية ــ ألم يكن منكم نهاه تمنع الغواه ــ ما أنتم بالحلماء وقد اتبعتم السفهاء ــ أين فى غير ضعف وشدة فى غير

عنف ــ فمن غــرق قوما غرقناه ومن أحــرق قوما أحرقنــاه ، وغير ذلك(١٣) .

ونجد كذلك (مراعاة النظير) فى قوله : (فمن غرق قوما غرقناه ومن أحرق قوما أحرقناه ، من نقب بيتا نقبنا عن قلبه) .

٧ ــ اشتملت هــذه الخطبة على كثير من الصور البيانية الرائعة فى تركيبها وتوظيفها لخدمة مضامينه الفكرية ، وكانت الصور البيــانية فى هــذه الخطبة قوية التعبــير والتــأثير . فمن الاستعارات قوله (الضلالة العمياء) فقــد شبه الضلالة بالحيوان ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو العمى ، ففيه استعارة مكنية .

ومن الاستعارات قوله (ينبت فيها الصغير) حيث شبه الانسان بالنبات بجامع النمو فى كل ثم حذف المشبه ، وأبقى المشــبه به على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وفى قوله (حتى انتهكوا حرم الاسلام) استعارة مكنية حيث شبه حرمات الاسلام بالعرض الذى يهتك بجامع تجاوز الحد فى كل ، ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو الانتهاك .

وفى قوله (مكانس الريب) استعارة بالكناية فقد شبه ما هم فيه من ريب وضلالات ومعاصى بمكان يستتر فيه بجامع التخفى فى كل ، ثم حذف المشبه به ، ودل عليه بشىء من لوازمه وهى (مكانس) .

ومن محكم تمثيله قوله (انج سعد فقد هلك سعيد) ففيه استعارة تمثيلية حيث شبه الحالة التى هم عليها بحالة هــذا المثل ، وهو مثل

---

(١٣) انظر : نماذج فى النقد الأدبى ص ٤٢١ وما بعدها .

يضرب فى تتابع الشر بجامع الهلاك ، ثم استعرنا التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية .

والأمثال كلها من قبيل الاستعارات التمثيلية اذا قيلت فى أحوال تناسبها .

وفى قوله (نقبنا عن قلبه) استعارة بالكناية ، فقد شبه القلب بالمكان وحذف المشبه به ، ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو (التنقيب) . وفى قوله (حتى يبدى له صفحته) استعارة تمثيلية فقد شبه المجاهرة بالعداوة بابداء صفحة الوجه بجامع السفور فى كل ، على سبيل الاستعارة التمثيلية ، وقد لاحظنا أنها صورة منتزعة من متعدد كما نرى .

أما فى قوله (ولا تشربوا قلوبكم بغضهم) ففيه استعارة مكنية فقد شبه البغض بسائل يشرب ، ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو (الشرب) .

أما الكنايات فى هذا النص فكثيرة ، والكنايات تبرز المعنى وتسوق عليه الدليل ومنها قوله (طرفت عينيه الدنيا) كناية عن صرفه الى الدنيا والى متاعها الزائف .

وأما قوله (سدت مسامعه الشهوات) ففيه كناية عن تمكن الشهوات منهم وانصرافهم الى متاع الدنيا .

وفى قوله (دلج الليل) كناية عن التلصص والسطو ليلا ، وفى قوله (غارة النهار) كناية عن الفتك والسلب كرها بالنهار ، وفى قوله (او تستقيم قناتكم) كناية عن استقامتهم .

وفى قوله (واياى ودعوى الجاهلية) كناية عن التناصر بتأثير العصبية سفها وجهالة .

وفى قوله (من نبش قبرا دفناه حيا) وفى قوله (من أحـــرق قوما أحرقناه) وقوله (من غـــرق قوما أغرقنـــاه) كلها كنايات عن شـــدة العقوبة •

وفى قوله (جعلت ذاك دبر أذنى وتحت قـــدمى) كنـــاية عن الاهمال والاحتقار وعدم المبالاة ، وفى قوله (لم أكشف له قناعا) وقوله (لم أهتك له سترا) كنايتان عن الستر •وفى قوله (حتى يبدى لى صفحته) كناية عن الجهر بالعداوة •

وأما المجاز العقلى فيتمثل فى قوله (فى النهار المبصر) حيث وصف النهار بالابصار مع أنه زمن لوقوع الابصار فيه فعلاقته الزمانية، وأيضا المجاز العقلى فى قوله (كذبة المنبر بلقاء) وعلاقته المكانية حيث أسند الكذب الى المنبر والمنبر لا يكذب ولكن لوقوع ما يقال فيه •

وفى قوله (قتله السل من بغضى) مجاز عقلى علاقته السببية لأن السل سبب فى القتل ، وفيها كناية عن شدة الحقد •

وفى قوله (لصرعى كثيرة) مجاز مرسل علاقته « ما سيكون » •

وهكذا أجاد الخطيب فى تركيب صوره وتوظيفها لخدمة مضامينه الفكرية ، وكانت صوره نابضة بالحياة والحركة ، وأبرزت الشىء المعنوى فى صورة المحسوس ، ومن هنـــا استقرت فى الذهن ورســـخت فى الوجـــدان •

٨ ــ أما الخصائص الأدبية لخطبة زياد والتى نحن بصددها الآن ، والتى تمثل نفسيته وروحه وشخصيته أتم تمثيل ، ففيها الخصـــائص والسمات التالية :

أولا : هـذه الخطبة قوية الأسلوب جزلة الألفاظ ، يعتمد زياد فيها على التأثير الخطابى ، وعلى ايقاع السجع المطبوع أحيانا ، وعلى قصر الفقرات ، وعلى أسلوب التهديد والوعيد الذى ملئت به الخطبة ، مما يجعلها قريبة التأثر بالنزعة الجاهلية فى ألفاظها ووقعها الحاسم القاطع .

ثانيا : وفى هـذه الخطبة كذلك روح التأثر الأدبى ببلاغة القرآن الكريم واضحة ، ففيها نزعة اسلامية من حيث الأسلوب ، ووحدة الخطبة ظاهرة ، فهى فى موضوع سياسى واحد متصل ، وهى وثيقة أعلن بها زياد الحكم العرفى لأول مرة فى الاسلام ، ثم هى من أولها الى آخرها تنصب على الغرض الذى قيلت من أجله ، فلا حشو ولا اغراب ولا حوشية ولا ابتذال ، بل فيها احكام تام وتناسق دقيق وتسلسل بديع .

ثالثا : واذا أمعنا النظر فى هـذه الخطبة فهى البلاغة الطبيعة والفصاحة السلسة التى تتدفق تدفق الماء فى النهر : لينا فى غير شدة واطرادا فى تتابع ، دون التواء أو انقطاع أو استطراد أوعى أو ضعف . وألفاظ الخطبة ذات تأثير صوتى قوى ، وايقاعها الموسيقى الذى اعتمد على الجرس المتميز ، وقد انتقى فيها الخطيب صوره البيانية بحذق ومهارة تامين .

رابعا : مما يميز هـذه الخطبة أن الظاهرة الواضحة فيها ، ترك بدئها بحمد الله والثناء عليه ، ولذلك سميت بالبتراء(١٤) .

---

(١٤) انظر : نصوص أدبية ص ٥٢ وما بعدها .

٩ ــ ويأخذ بعض المؤرخين على زياد بن أبيه أنه حاد عما رسمه الاسلام فى العقوبات وأعلن الحكم العرفى لأول مرة ، وبالغ فى ذلك ، وقد اعترف هــو بأنه يخوض الباطل خوضــا ، ومما يروى أنه دعا عبد الله بن الحصين ، وأمره أن يأتى برأس كل من لقبه فى خارج منزله بعد العشاء الأخيرة ، وهو بذلك يفرض (حظر التجول) فجاءه فى أول ليــلة بسبعمائة رأس ، وفى الثانية بخمسين رأس ، وفى الثالثة برأس واحــدة(١٥) .

ومن شدته أنه كان يبالغ مع علمه بصدق الذى أمامه : روى أنه أمر صاحب شرطته بالخروج ولا يرى انسانا الا قتــله ، فأخذ ليــلة أعرابيا ، فأتى الى زياد ، فقال : هل سمعت النداء ؟ (يقصد هل سمعت نداء أذان العشاء ؟) فقال : لا والله ، قدمت بحلوبة لى ، وغشــينى الليل ، فاضطررتها الى موضع ، فأقمت لأصبح ، ولا علم لى بما كان من الأمير ، قال : أظنك والله صادقا ، ولكن فى قتلك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه(١٦) .

وكان يأخذ الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى ، وكان يعاقب على الظنة ويأخذ بالشبهة ، وقد خافه الناس خوفا شديدا ، وهــذا الأمر لم يكن جاريا على القانون الشرعى ، فى نظر هؤلاء المؤرخين ، ومن يمعن النظر فيما فعــله زياد يدرك أنه هو العلاج الوحيد الذى استطاع به القضاء على الفسق والفجور فى هذه

---

(١٥) انظر : فى أدب الأمويين والعباسيين ونصوصه ص ٩٦ .
(١٦) انظر : تريخ الطبرى ٦/١٢٤ .

الديار ، وعلى ما فيها من مخـــازى وعكوف على الشهوات والملذات ، وعلى الفتن والقلاقل ، فاستتب الأمن وسكنت الفتن والثورات ، ودخل الناس فى طاعة بنى أمية رغبا ورهبا ، والله تعالى يقول فى محـــكم التنزيل « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وأعلموا أن الله شديد العقاب »(١٧) •

(والحمد لله الذى هدانا لهـــذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

أ•د/ على محـــــمد طلب
أستاذ بقسم الأدب والنقد
ووكيل كلية اللغة العربية بأسيوط

---

(١٧) سورة الأنفال الآية ٢٥ •